مهمات الطبقة العاملة المنتصرة وعمال البلدان الرأسمالية والشعوب المستعمرة في الثورة العالمية

■ بقلم : عدنان بدر ■

قلنا في العدد الماضي من « الهدف » ، عندما نشرنا الجزء الاول من هذا المقال ، ان الدراسة التبسيطية للقواعد الماركسية ، ومحاكمة القضايا التي يحتدم النقاش حولها الآن من خلال تلك الدراسة هما خط ستحاول « الهدف » ان تتبعه بين الفينة والاخرى في مقالات هدفها تعميق التفكير العلمي وفق اصوله الماركسية لدى قواعد اليسار في حركة المقاومة خصوصا .

ويعالج هذا المقال موضوع قوى الثورة في العالم : الطبقة العاملة المنتصرة والشعوب المستعمرة والطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية ، وقد تطرق في الجزء الاول منه الى شرح تفصيلي للمعطيات الماركسية في هذا المضمار ، وفي هذا الجزء الثاني والاخير ، تتمة المقال .

« الهدف »

الاستعمار وقوانين الصراع الطبقي :

ابسط ما يمكن ان يوضع ماهية الظاهرة الاستعمارية وعلاقتها بالوضع الاجتماعي داخل البلدان الاستعمارية ذاتها هو ما استشهد به لينين في مؤلفه (الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية) ، وهو قول السياسي البريطاني سيسيل رودس (احد منظري الامبريالية وحيازة المستعمرات وتيمنا باسمه اطلق اسم روديسيا على المستعمرة البريطانية التي تحمل هذا الاسم في افريقيا) ، قال رودس لصديقه الصحفي ستيد « كنت امس في الايست اند) حي العمال في لندن (وحضرت اجتماعا من اجتماعات العمال العاطلين ، وقد سمعت هناك خطابات فظيعة كانت من اولها الى اخرها صرخات : الخبز ! الخبز ! واثناء عودتي الى البيت كنت افكر بما رايت ، وتبينت اوضح من السابق اهمية الامبريالية .. ان الفكرة التي اصبو اليها هي حل المسالة الاجتماعية ، أعني : لكيما ننقذ اربعين مليونا من سكان المملكة المتحدة من حرب اهلية (ثورة) مهلكة ينبغي علينا نحن الساسة طلاب المستعمرات ان نستولي على اراض جديدة لترسل اليها فائض السكان ولنقتني ميادين جديدة لتصريف البضائع التي تنتجها المصانع والمناجم . فالامبراطورية ، وقد قلت ذلك مرارا وتكرارا ، هي مسالة البطون . فاذا كنتم لا تريدون الحرب الاهلية ينبغي عليكم ان تصبحوا امبرياليين » .

وبالفعل أنجت الرأسمالية العالمية عملية الاستيلاء على العالم ما بين ١٨٧٦ و ١٩١٤ ، فقد كانت مساحة المستعمرات والترتيبولات هام ١٨٧٦ ، ٥٦٤٠ مليون كيلو متر مربع بينما اصبحت عام ١٩١٤ ، ١٣٣٦٩ مليون كيلومتر مربع ... (لينين ـ الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية) واستطاعت بذلك ان تؤمن ما يلي :

١ ـ ان تحيل العالم كله الى سوق لها .. فقدرة العالم كله الاستهلاكية تعدل الفارق بين القدرة الانتاجية للبلدان الرأسمالية المتقدمة وبين قدرة شعوبها الاستهلاكية .

٢ ـ ان تحصل على مواد اولية اكثر ورخص، الامر الذي يمكنها من تخفيض كلفة الانتاج ويساعد على تكريسه دون ان يكون ذلك على حساب اجور العمال في البلدان الرأسمالية المتقدمة .

٣ ـ ان تشغل في البلدان المستعمرة (بالفتح) ايدي عاملة رخيصة جدا يمكنها من مضاعفة الانتاج ومن تخفيض الاكلاف .

٤ ـ ان تبقي الطبقة العاملة في بلدانها ـ اعتمادا على مجمل المعطيات المذكورة سابقا ـ في وضع معاشي معقول البعد عن حال التأزم الثوري ، وذلك بتخفيض الاستغلال المباشر لعدهم ، اي باعطائهم قيمة من جهودهم في الانتاج اكبر من السابق .

على هذا الاساس تمكنت الرأسمالية المتقدمة بوصولها مرحلة الامبريالية ، من ان تعطي لنفسها في بلدانها مدى من الحياة اطول ، بمان وجدت لأزماتها المستعصية حلولا تأجيلية ، تكنها في الوقت نفسه وبالصورة نفسها التي وسمت نطاق استثمارها بها كانت تخلق نقيضها الذي هو اوسع بكثير من السابق ، لقد كانت تزيد بشكل كبير جدا مساحة القوى الاجتماعية المصابة بالاستثمار والاستغلال الرأسماليين . لقد دخلت مرحلة تحويل العالم كله الى بروليتاريا مستغلة من قبل رأسمالية متقدمة تتمركز شيئا فشيئا حتى تصير رأسمالية واحدة هي الاكثر تقدما والاكثر قدرة بالتالي على اتهام الرأسماليات الاضعف . وراح التناقض الطبقي يتأزم من جديد، لا بينها وبين عمال بلدانها (الذي خفت حدته الى حين) وحسب ، بل وبينها وبين ملايين الفقراء المستعمرين والمستغلين في مختلف انحاء العالم ، مع شعوب قارات كاملة . واكتشاف لينين لهذه الحقيقة الموضوعية جعله يقول : « الثورة الاشتراكية لن تكون لا كليا ولا بصورة رئيسية عبارة عن نضال الثوريين في كل بلد من البلدان ضد برجوازيتهم فقط ، انما ستكون نضالا من قبل جميع المستعمرات والبلدان التي يظلمها الاستعمار ، نضالا من قبل جميع البلدان التابعة ضد الاستعمار العالمي » ـ لينين ـ حركة شعوب الشرق الوطنية التحريرية . ص ٣١٧ .

واذا كانت الرأسمالية قد استطاعت بالفعل من خلال الاستعمار ان توجد حلولا تأجيلية لأزماتها ولم يعد الساسة البريطانيون مثلا يسمعون صرخات الخبز الخبز في حي العمال في لندن ، فان هذه الحلول لم تكن لتخدم تلك الرأسمالية حتى النهاية ، وكان لا بد ان يأتي الوقت الذي تضيق فيه هذه الحلول عن استيعاب الأزمات المتصاعدة الحدة للنظام الرأسمالي العالمي « الامبريالي » ، وبدات تلك الازمات تزداد حدة من جديد ، ليس على اساس ان الرأسمالية هي محلية وحسب ، بل وعلى اساس انها عالمية وتجد بشكل متزايد فعل قوانين الصراع الطبقي في النظام الرأسمالي على صعيد العالم كله على اساس ان هذا العالم غدا وحدة اجتماعية واحدة تقريبا ... وقد عرف العالم من جراء ذلك نوعين من التناقضات كانا في الماضي ملازمين للرأسمالية المحلية :

التناقض الاول هو المزاحمة بين رأسماليي البلدان المشابه للتزاحم القديم بين رأسماليي البلد الواحد .. وهذا التناقض فجر حربين عالميتين كانتا من اقسى ما عرفت البشرية من كوارث ، وذلك كله من جراء المزاحمة لاقتسام واعادة اقتسام العالم ، السوق الدولي للامبريالية .. وهذا التناقض ، مع ان حدته قد بدات تخف حاليا ، فانه بالحقيقة ما يزال قائما ، وما تزال الامبريالية الاميركية تلهم ، لا الاسواق التابعة للرأسماليات الاوروبية وحسب ، بل والاسواق المحلية لتلك الرأسماليات ، وهذا ما يوضح حقيقة ان الولايات المتحدة هي الان زعيمة الامبريالية العالمية والمسيطرة عليها سياسيا واقتصاديا .

اما التناقض الثاني ، وهو التناقض الرئيسي في هذه المرحلة من تاريخ العالم ، فهو الصراع بين القوى الامبريالية ككل وبين قوى الثورة الاشتراكية على امتداد ساحة العالم ، وهذا الصراع الواحد يحتدم في ثلاث ساحات وباشكال من النضال مختلفة :

□ ١ ـ ساحة الطبقة العاملة المنتصرة : حيث تمكنت الطبقة العاملة بقيادة احزابها الاشتراكية في بلدان عديدة (ثلث سكان الكرة الارضية) من تدمير النظام الرجعي بكل اشكاله الامبريالية والرأسمالية والاقطاعية ، وبدات عملية بناء النظام الاشتراكي ... لقد ولد المعسكر الاشتراكي وتطور ونما في ظل الملكية الاشتراكية لوسائل الانتاج التي تحل جذور التزمات وتعطي لقوى الانتاج قدرة على النمو غير محدودة ـ تؤمن التشغيل الكامل لقوى الانتاج ، وتطلق التوازي الطردي بين القدرة الانتاجية والقدرة الشرائية للمجتمع ـ وهذا ما جعل النظام الاشتراكي يتقدم بسرعة ليضاهي بقدراته الاقتصادية ومن ثم الاجتماعية والسياسية ، واعلاكه للطوم والتكنيك العالي ، القوى معاقل الرأسمالية المتطورة ، وكحاصل على ذلك نقدم هذه المقارنة لتطور حصص البلدان الاشتراكية والبلدان الرأسمالية في الانتاج الصناعي العالمي بين عامي ١٩١٧ ـ ١٩٦٠ :

	١٩١٧	١٩٦٠
البلدان الاشتراكية اقل من ٢ ٪	قرابة ٣٦ ٪	
البلدان الرأسمالية اكثر من ٩٧ ٪	حوالي ٦٤ ٪	

وواضح بكل جلاء ، ان المجتمع الاشتراكي ، يخلو مسيرته من الازمات الاقتصادية المستعصية، وبقدرته على الاستعمال الكامل لقوى الانتاج والتكنيك المتطور ، انه قادر حتما على تجاوز النظام الرأسمالي المتعفن الذي تنخره الازمات الكامنة والمتحركة في صلبه .

□ ٢ ـ ساحة الشعوب المستعمرة : ان الامبريالية العالمية بتحويلها الشعوب المستعمرة (بالفتح) الى ايدي عاملة رخيصة ومتخلفة ، وبتعريضها اياها لابشع انماط الاستثمار والاستغلال ، قد ازمت التناقض بينها وبين تلك الشعوب ، ذلك التناقض الذي اخذ يتفجر على شكل ثورات وحركات تحرر وطني بدات تتعبأ شيئا فشيئا بمضامين اجتماعية واقتصادية تقدمية ، تماما كما توقع لينين الذي درس القاهرة الامبريالية كاعلى مراحل الرأسمالية على ضوء الماركسية ، حين قال « ان كميات كبيرة من المواد الملتهبة قد تراكمت في الدول الرأسمالية، كما تراكمت في تلك البلدان التي كانت حتى الان هدفا للتاريخ لا صانعا له ، اي المستعمرات واشباه المستعمرات ، ولذا يحتمل جدا ان تندلع في هذه البلدان عاجلا ام اجلا وبصورة غير منتظرة اطلاقا الانتفاضات والمعارك الكبرى والثورات » ـ لينين ـ المؤلفات ـ المجلد ٤٤ ـ البيت الثورات في الصين وكوريا وفيتنام وكوبا ادلة على صحة توقعات لينين الماركسية لا

وحرارة التحرر الوطني لا تؤدي الى هدم النظام الاستعماري في بلدانها وحسب ، بل وهي تحمل السلاح من اجل تحرير نفسها ، تكون مساهمة بشكل فاعل جدا في عملية تحرير العالم من النظام الرأسمالي . ان تحرر الشعوب المستعمرة ، سيعيد الرأسمالية المتطورة بكل قدراتها الانتاجية التي تضخمت في مرحلة الاحتكارات لمواجهة تناقض حاد جدا مع الطبقة العاملة داخل بلدانها . الامر الذي سيدفع بحدة التناقض الطبقي في البلدان الرأسمالية الى حدود لم يعهدها من قبل . وليست التناقضات والازمات التي بدات تفعل فعلها في الدول الرأسمالية بشكل عام وفي بريطانيا بشكل خاص (كانت بريطانيا من قبل النموذج « الاشتراكي » الدعاوي الذي يستند عليه الفكر البرجوازي المغالط) ليست الا نتيجة مباشرة لانحسار النظام الاستعماري الذي تمكن ، الى حين ، من تخفيف حدة ازمات النظام الرأسمالي.

□□□ ٣ ـ ساحة الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية :

لقد تمكنت الرأسمالية الامبريالية في اوج عصر الاستعمار من النازل من بعض المكتسبات للطبقة العاملة في بلدانها ، بل ومن رشوة الاحزاب « العمالية » الاصلاحية ، و « النقابات » التبرجزة ، التي راحت تتنقل رويدا رويدا الى موقع الالتزام الكامل بخدمة الرأسماليين ضمن النظام الرأسمالي الاحتكاري .

لكن عيش ظاهرة المكتسبات هذه ، وفاعليتها ، كانتا محدودتين بظاهرة الاستعمار ، فامام انتصارات المعسكر الاشتراكي ، وضربات حركات التحرر الوطني للنظام الاستعماري ، راحت الرأسمالية العالمية تفقد تدريجيا قدرتها على الاستمرار في جني ثمار المرحلة ... وراحت تجد نفسها من جديد في احضان ازماتها المستعصية لا عاليا وحسب ، بل ومحليا .. وهي الان رغم كل نفاق البرجوازيين تواجه مرحلة افولها ، بعد ان غدت طبقة هابطة تاريخيا ، ولا يخفى هذا المصير ، بل هو في الحقيقة دليل عليه ، انها تقوم بغارات جزلية على القوى الثورية الصاعدة في انحاء العالم ، وتحقق بعض الانتصارات الجزئية كما في العالم العربي ، وبعض بلدان العالم الثالث كاندونيسيا وغانا وغيرهما . « ان الطبقة الرسمالية ، بقدر المخافها في رجعيتها ، وبقدر ما تدفع بقطاعات اوسع واوسع الى التعارض معها ، بقدر ما يزداد استعمالها للقمع والعنف ، ويزداد عداؤها للديمقراطية التي كانت مناخا ملائما لها يوم كانت طبقة صاعدة ». هذا ما قاله كارل ماركس عام ١٨٤٨ .

ان عسكرة الاقتصاد وتحويل الدولة الى جابي وحارس لدى الاحتكارات والترستات الحربية في البلدان الرأسمالية المتطورة ، لن تخفي ان تلك الطبقة قد غدت تواجه ازمات مصيرها . ازمات التناقض الحاد بين قوى الانتاج الاجتماعية النامية وبين شكل الملكية الرأسمالية الرجعي لوسائل الانتاج .

ان كل مظاهر القوة في الولايات المتحدة ، لن تتمكن من اخفاء ان ٤٩ برءاة اختراع من اصل خمسين تشتريها شركة احتكارية اميركية تجد ويعمل بواحدة فقط (لان استعمال الاختراعات الجديدة سيزيد من كمية الانتاج ، مقابل ثبات القدرة الاستهلاكية) ولن تخفي ان الدولة في الولايات المتحدة تدفع الاموال (التي هي ضرائب من الشعب) منذ اكثر من ١٨ عاما لقاء انقاص عمليات البذار وتخفيض انتاج المنتجات الزراعية ، في الوقت الذي تعاني فيه الجوع جماهير ضخمة من الناس في العالم الراسمالي « يضطرون الى حرق المحصولات واتلاف البضائع الجاهزة ، ووقف الانتاج وتحطيم القوى المنتجة ، بينما ملايين الناس يقاسون الام البطالة والجوع ، لا لفقدان البضائع ، بل لكثرة ما انتج منها » ستالين ـ الفقرة الواردة سابقا ـ .

ولن تخفي ابدا ان الثلاثين مليار دولار التي تنفقها الولايات المتحدة سنويا على حرب فيتنام هي ضرائب يدفعها اوسع الجماهير الاميركية للحكومة ، كي تدفعها بدورها الى اصحاب الترومتات الاحتكارية ثمنا للانتاج الحربي الذي تتلفه في فيتنام .

ولن تخفي ان تاثر النمو الصناعي والتصدير في البلدان الرأسمالية آخذة بالانخفاض :

السنة	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨
الانتاج الصناعي في البلدان الرأسمالية	+ ١٠٤٩	+ ٤٠٥	+ ٣٠٤	ـ ٢٠٥
تصدير البلدان الرأسمالية	+ ٨٠٦	+ ٨٠٨	+ ٥٠٦	ـ ١٠٥

الجدول ماخوذ عن Statistical Year Book 1960. U.N. - NY.-P: 59

وهي لا يمكن ان تخفي ذلك الاشتداد المتزايد باستمرار في نضال الطبقة العاملة المتمثل في هذا التزايد المستمر بعدد المضربين في العالم الراسمالي :

السنة	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩	١٩٦٠	١٩٦١
عدد المضربين بالملايين	١٣٠٩	٢٣	٢٢٠٤	٤٠٠٧	٥٣٠٦	٦٠
النسبة مع عام ١٩٥٦	١٠٠	١٦٥	١٦١	٢٩٣	٣٨٢	٤٣٨

الجدول عن : « ازمة الرأسمالية العالمية في المرحلة الحالية » ـ ارزومانيان ـ ص١٤٧

وهناك ظواهر وعائلة اقتصادية واجتماعية وسياسية عديدة يمكن ايرادها كادلة على تفاقم تناقضات النظام الراسمالي منها : تجميد الاجور في بريطانيا وخفض قيمة الجنيه الاسترليني تصاعد موجة الاضرابات ، الازمة السياسية التي نجلت في سقوط المحافظين ثم سقوط العمال ، تلك الظاهرة التي تشير ظاهريا لنتيجة البنيان السياسي للنظام في بريطانيا على نجاح العمال ثم نجاح المحافظين ، بينما هي في الحقيقة سقوط لبرنامج الطبقة الحاكمة من خلال الحزبين بشكل متنال .. وازمة الفرنك الفرنسي وتصاعد الاضرابات العمالية في فرنسا وايطاليا والولايات المتحدة وجميع البلدان الرأسمالية وغير ذلك كثير

ان كل ما تقدم يؤكد ان النظام الراسمالي الامبريالي قد بدا يواجه نهايته تحت ثقل الفوضى وذلك الجدل بل يؤدي احيانا الى تداخل سلبي فيما بينها ، حينما تحاول قوة منها ان تفرض اسلوب نضالها الذي هو مفروض عليها من قبل واقعها المختلف ، بل قوة اخرى بفرض عليها واقعها اسلوبا نضاليا اخر . حتى ان البعض يذهب الى درجة القول بحلول واحدة من تلك القوى مكان القوى الثلاث .

لكن التقييم العلمي الذي يتجاوز كل الدعاءات الذاتية والديماغوجية هو الذي يقر بما يلي :

□ ان هنالك مهمات اساسية لكل قوة من تلك القوى تناضل من اجلها وفق الاسلوب الذي يفرضه عليها واقعها .

□ ان هنالك مهمات اضافية مشتركة ، لا تقل اهمية عن المهمات الاساسية ، يفترض ان يجري التنسيق بين القوى الثلاث من اجل انجازها فتقدم كل قوة ما عندها ووفق اسلوبها لانجاز تلك المهمات .

١ ـ المهمات الاساسية :

أ ـ نضال شعوب المعسكر الاشتراكي من اجل انجاح النظام الاشتراكي وتطوير قدراته فذلك بدون شك سيضعف من قوة النظام الراسمالي الاقتصادي والاجتماعية والسياسية .

ب ـ نضال الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية من اجل تحقيق مكتسباتها واهدافها. فكل مكسب تحققه تلك الطبقة هو اضعاف للنظام الراسمالي وتشديد لأزماته .

ج ـ نضال شعوب العالم الثالث من اجل التحرر الوطني التقدمي سياسيا واجتماعيا واقتصاديا فان كل هزيمة تلحقها حركة التحرر الوطني بالامبريالية وحلفائها هي هزيمة للعدو المشترك .

٢ ـ المهمات المشتركة :

الارتفاع بمستويات النضال الاولى الى مرحلة الوحدة النضالية ، حيث تعتبر كل قوة من هذه القوى الثلاث ان عليها واجب دعم نضال القوى الاخرى ، دون اية وصاية ، وتقديم كل ما يمكن لتلك القوة ، التي تناضل وفق الاسلوب الذي يفرضه عليها واقع معركتها .

ان الاقرار بهذه الحقائق العلمية الموضوعية يخرجنا من مدار التقييمات الذاتية ، حيث تطلب كل قوة من هذه القوى الثلاث ، ان يصبح نضال القوى الاخرى متمحورا كليا حول نضالها كشرط لاعتبار ان هنالك دورا تقدميا لتلك القوى.

ان النضال المستند الى التقييم العلمي لطبيعة الصراع في المرحلة ، والى دور كل قوة فيه ، ليقرر ضرورة النضال على المستويين المحلي والاممي .. فلنناضل نحن كحركة تحرر وطني تقدمية من اجل الانتصار على عدونا المحلي : الامبريالية العالمية ، الصهيونية واسرائيل ، والرجعية العربية ، وكل القوى المعادية لحركة الجماهير العربية التقدمية ... ولنناضل ايضا من اجل التعاون والتنسيق والوحدة مع جميع القوى الناضلة ضد العدو المشترك الذي هو الرأسمالية الامبريالية العالمية، اي لنعمل على توطيد علاقاتنا الرفاقية مع جميع حركات التحرر الوطني ، مع جميع شعوب المعسكر الاشتراكي ، ومع جميع عمال العالم المناضلين ضد رأسمالية بلدانهم .